

الهجرة الجزائرية الى فرنسا: حدث حاسم في التاريخ الاجتماعي والسياسي للجزائر

(دراسة اجتماعية – سياسية)

Algerian immigration to France: a decisive event in the social and political history of Algeria (socio-political study)

عبدالله بوصنوبرة*

جامعة 8 ماي 1945 - قالمة (الجزائر)، sociologie240000@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/20؛ تاريخ القبول: 2023/01/01؛ تاريخ النشر: 2023/01/31

الملخص

لا شك أن كل شعوب وقبائل العالم قد عرفت الهجرة، ومارسها سواء داخل اقليم موطنها أو خارجه، مستهدفة بذلك الأمن والاستقرار من جهة، وتوفير ضرورات الحياة الأخرى من غذاء وماء ومرعى من جهة أخرى.

ان الهجرة ظاهرة اجتماعية وتاريخية لصيقة بتشكيل المجتمعات والأمم ونموها، عرفها المجتمع الجزائري عبر العصور، من خلال توافد أجناس عديدة ولأسباب مختلفة، إلا أنه وفي ظل الاستعمار، اضطر الى مغادرة تراب وطنه فرديا وجماعيا، وفقا لعوامل سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية ميزت تلك المرحلة. لكن تبقى الهجرة الى فرنسا خاصة في مطلع القرن العشرين، هي العلامة البارزة في التاريخ الاجتماعي الجزائري المعاصر، وما حملته من آثار عميقة في بنيته الاجتماعية ووعيه السياسي، وتداعياتها على مسار الحركة النضالية للشعب الجزائري، في سبيل التحرر من النظام الاستعماري واسترجاع سيادته واستقلاله.

تهدف هذه الدراسة اذا، الى تبيان الظروف التي دفعت الى هجرة آلاف الجزائريين خلال الحقبة الاستعمارية، وما تركته من آثار في مختلف الجوانب، ومنها الانفتاح على التجارب النضالية السياسية الأخرى، وانتشار الوعي الوطني، الى جانب تحسن الظروف الاقتصادية والاجتماعية للمهاجرين وعائلاتهم.

الكلمات المفتاحية: الهجرة الجزائرية، الاغتراب، التاريخ الاجتماعي، التاريخ السياسي

Abstract

There is no doubt that all peoples and tribes of the world have known migration and practiced it, whether inside or outside their home region, as the aim was to ensure security and stability on the one hand, and to provide other life necessities such as food, water and accommodation on the other hand. Migration is a social and historical phenomenon closely linked to the formation and growth of societies and nations, which Algerian society has known throughout the ages, through the coming of many races to it for various reasons. Under the French colonialism, the Algerian people were forced to leave their homeland individually and collectively, according to political, social, cultural and economic factors that characterized that stage. However, migration to France, especially at the beginning of the twentieth century, remains the milestone in contemporary Algerian social history. This is especially in light of the profound effects that migration carried on its social structure and political awareness, and its repercussions on the path of the struggle of the Algerian people, in order to liberate from the colonial system and restore its sovereignty and independence. Therefore, the following study aims to present the circumstances that prompted the migration of thousands of Algerians during the colonial era, and the effects it left in various aspects, including openness to other political struggle experiences, the spread of national awareness, as well as the improvement in the economic and social conditions of migrants and their families.

Keywords: Algerian migration, Alienation, social history, political history.

* عبدالله بوصنوبرة

مقدمة

تعد الهجرة ظاهرة انسانية واجتماعية قديمة، واكبت تاريخيا نمو وتطور الجماعات والشعوب وتأسيس المجتمعات والأمم، نبعت من الناحية النفسية والاجتماعية من فطرة الانسان التواقة الى الأمن والاطمئنان والرخاء... سواء كانت هجرة داخلية او خارجية.

لقد عاش المجتمع الجزائري تجربة الهجرات عبر تاريخه الطويل، لأسباب وظروف مختلفة، وبناتج سوسيوولوجية وثقافية وسياسية واقتصادية متعددة. وتعد الهجرة الجزائرية الى فرنسا أحد أكبر وأحدث ظواهر الهجرة في التاريخ المعاصر، ظلت تغذي تقاطعات وتناقضات معقدة في علاقة الجزائريين بالبلد المستعمر؛ حيث كان ولا يزال لها تداعيات وتأثيرات عميقة قبل وبعد تأسيس الدولة الوطنية غداة الاستقلال. وعليه سنحاول في هذه الورقة البحثية، الاجابة على عدة تساؤلات حول: - العوامل والظروف التي دفعت الجزائريين الى الهجرة الى فرنسا؟ - الآثار والنتائج التي ترتبت على هجرة الجزائريين الى فرنسا منذ نهاية القرن ال 19 وحتى مرحلة الثمانينات؟ - خصائص المهاجر الجزائري في بلد الهجرة، ومكانته في بنية المجتمع الفرنسي المستقبل؟ - دور الهجرة في احداث التغير الاجتماعي والسياسي للمجتمع الجزائري، سواء في النضال ضد الاستعمار أو في مرحلة بناء وتنمية الجزائر المستقلة؟.

I . مفاهيم نظرية حول الهجرة

I .1- مفهوم الهجرة والمهاجر

ان كلمة هجرة مستمدة من الهجر، وهي ضد الوصل، أي الفراق وقطع الصلة، والمهاجر هو من ترك وطنه وفارقه الى موضع آخر (المطرزي، د س ن، صفحة 499) وعليه، فان المدلول اللغوي للكلمة يتضمن معنيين: الترك والقطع وإهمال الشيء من جهة، والخروج من أرض الى أرض من جهة اخرى. (الكريم، 1981، صفحة 19) وقد عرف معجم العلوم الاجتماعية الذي أصدرته اليونيسكو الهجرة بأنها: " تحركات جغرافية لأفراد أو جماعات " (مذكور، 1975، صفحة 629) ولإزالة الغموض الذي يكتنف الظاهرة، فقد أوصت هيئة العمل الدولية أن تشمل " الهجرة الدائمة انتقال الفرد من دولة الى أخرى، ليقيم بها مدة تزيد عن شهر وتقل عن عام، للقيام بمهمة أو لشغل وظيفة ". كما قررت هيئة الامم المتحدة، أن التحركات التالية تعد نوعا من الهجرة: " السفر لغير السياحة أو الدراسة، والسفر المستمر عبر الحدود، والسفر لغير اللاجئين، أو لمن نقلوا لظروف قاهرة من وطنهم " (مذكور، 1975، صفحة 629).

وفي المؤتمر الدولي للهجرة، المنعقد في روما سنة 1924، عرف المهاجر بأنه: " كل أجنبي يصل الى بلد طلبا للعمل، بقصد الاقامة الدائمة... وهذا نقيض العامل الذي يصل الى بلد للعمل فيه بصفة مؤقتة " (زوزو، 1974، صفحة 11)، والهجرة حسب ميرل هي: " الحركة التي تحدث مرة واحدة في حياة الفرد أو الأسرة، ولكنها

تغير حياتهم كلياً"، أما ليندبرغ فيعرف الهجرة بأنها: " كلمة عامة تستعمل للدلالة على التغير الدائم نسبياً للمكان الجغرافي ".

ان تعريف ميرل يفتقر الى الدقة، لأنه جعل ظاهرة الهجرة وكأنها تحدث مرة واحدة فقط عند الفرد أو الجماعة، أما تعريفي ليندبرغ وعاطف غيث، فإنهما أكثر دقة، لأنهما أحاطا بمختلف جوانب الظاهرة وربطها بالاعتبارات الزمانية والمكانية.

ويعرف القاموس الديموغرافي كلمة هجرة بأنها: " حركة فرد ما نتيجة لتغييره مكان اقامته... والمقيم هو الشخص الذي يقطن في المسكن الذي يعتبر مكان اقامته المعتادة منذ أكثر من ستة أشهر..." (موفق، 1984، صفحة 28) وتعد حركة الهجرة من العوامل الرئيسية في التغير الديموغرافي؛ من حيث الزيادة أو النقصان، وبالتالي فهي تلعب دوراً هاماً في التطور الاجتماعي وتغيير السلوكيات الفردية والجماعية والثقافات داخل المجتمع، بما تتركه من اضافات قد تكون ايجابية أو سلبية، بفعل العلاقة الجدلية بين الموارد الاقتصادية والحاجات البشرية والتفاعلات الثقافية...

تنقسم الهجرة الى نوعين: هجرة داخلية؛ تتم داخل حدود الاقليم الوطني، وخاصة من الريف الى المدينة أو العكس، أو من مدينة الى مدينة أخرى، وهجرة خارجية؛ تتم من اقليم دولة الى اقليم آخر خارجي، وقد تكون من الخارج الى داخل الوطن. كما توجد هجرة دائمة تستهدف الاستقرار والاستيطان في بلد المهجر، وهجرة موسمية أو مؤقتة للعمل أو للدراسة ثم العودة الى الوطن.

على هذا الأساس، سجل التاريخ حركات هجرة كبرى، مثل الهجرة الأوروبية الى العالم الجديد، والهجرة الجزائرية الى فرنسا... الخ. وقد شكلت ظاهرة الهجرة مجالاً خصباً للدراسة والبحث، وألهمت علماء وباحثين كثيرين، لاكتشاف القوانين التي تحكم هذه الظاهرة الانسانية المعقدة، ومن بينهم روفنسون ولونجستاف وأوجل، (طفطاف، 1985، صفحة 46) الذين اعتبروا أن المهاجرين يتحركون من القرى الى المدن القريبة، ومن المدن الصغيرة الى المدن الكبيرة، وكان يعتقد قبل سنة 1940 أنه يمكن وضع قوانين عامة للهجرة، انطلاقاً من النمط النيوتني؛ حيث تم افتراض أن الهجرة تتدفق بين قطبين، وهذا التدفق متناسب طرداً مع جداء الكتلتين، وعكساً مع مربع البعد بين القطبين، كما يلي: تدفق الهجرة $M \times M = D^2$ (اليونسكو، 1979، صفحة 46)، غير أن نتائج هذا القانون لم تكن دقيقة وواقعية، مما أدى الى زوال الاعتقاد السابق بصلاحيته وغيره من القوانين الأخرى. وقد ساهم ستوفر في التأكيد على ضرورة ادخال مقولات ومفاهيم عامة عن الهجرة بين المدن أو داخلها، مع اهمال المميزات البنيوية لقطبي الهجرة في حالات معينة، وأخذها بعين الاعتبار في حالات أخرى.

I 2- الهجرة الجزائرية الى الخارج

ان التعاريف السابقة حول الهجرة، لا تلامس حقيقة المهاجر الجزائري، لأن شرط الاقامة الدائمة في بلد المهجر غير متوفر لدى جل المهاجرين الجزائريين، فهم غالباً ما يقومون بسفريات منتظمة الى الجزائر لزيارة أسرهم

وأقاربهم، وكذلك لقضاء العطل، وخاصة لحضور المناسبات الدينية. فهجرة الجزائري اذن الى فرنسا، كانت متقطعة ومؤقتة، لأنه ترك عائلته في الجزائر، وحتى الذين يعيشون مع عائلاتهم في المهجر، فإنهم يفكرون دائما في الرجوع الى الوطن يوما ما لأسباب متعددة.

ان الهجرة الجزائرية مختلفة عن بقية الهجرات، فلها طابعها الخاص، لأنها جاءت نتيجة ظروف استعمارية، تغيرت من جرائها البنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للمجتمع الجزائري. وعليه فان المهاجر الجزائري هو كل من يترك بلده ويلتحق بفرنسا أو غيرها، سواء للعمل فيها من دون اقامة دائمة لإعالة أسرته بالوطن، أو للإقامة عند أحد اقاربه بصورة منتظمة وخلال فترات معينة. ويقودنا هذا التعريف الى تبني نظرة جونار للهجرة باعتبار أنها: "ترك البلد الأصلي والالتحاق بغيره سواء منذ الميلاد أو منذ مدة طويلة، بقصد الإقامة الدائمة، وغالبا بقصد تحسين الوضعية بالعمل" (زوزو، 1974، صفحة 12)

هذه الوضعية التي ميزت ظروف الهجرة الجزائرية في الوقت الحالي، تخص فترة ما بعد الاستقلال، أما بدايات الهجرة فإنها ظاهرة أفرزها الواقع الاستعماري، وكانت من أخطر المشكلات التي ورثها المجتمع الجزائري عن الاستعمار، فقد كانت ذات طابع إجباري، تحت وطأة وقهر الاحتلال الفرنسي، من أجل التجنيد الاجباري والخدمة العسكرية، أو لأعمال السخرة في مصانع ومناجم الميتروبول أثناء الحربين العالميتين.

I. 3- الاغتراب والغربة

هما لفظان مأخوذان من التغرب، أي الوقوع في بيئة غريبة غير أصلية، يشعر فيها الانسان بمرارة البعد عن محيطه الطبيعي وهو بلده وأهله وبالوحشة والحنين اليهما.

من الناحية الفلسفية والسوسيولوجية، يقصد بالاغتراب: الاستيلاء وهو: "حالة ابتعاد أو انسحاب الفرد من وضع ما بدون وعي وتمحيص كافيين" (عصار، 1982، صفحة 105) وكذلك هو: "انحلال الرابطة بين الفرد والآخرين" (بوريكو، 1989، صفحة 29) وقد حدد مفهوم الاستيلاء مجموعة من العلماء والفلاسفة، منهم هيجل الذي يتشكل المفهوم عنده في حالة غياب الثقافة الاجتماعية، ودوركايم الذي يرى أن الاستيلاء ينتج بسبب حالة الفقر المعياري (الأنوميا)، وكذلك كارل ماركس الذي أعطاه بعدا آخر: حيث ربطه بفكرة التنازلات اللانسانية الناجمة عن تطور الرأسمالية، وعليه فهو يرى أن: "المجتمع الرأسمالي يسلب العامل نتاج عمله" (بوريكو، 1989، صفحة 30) فيشعر بالاستلاب والاغتراب.

يمكن القول، أن الاغتراب ليس بالضرورة حالة فيزيائية، بل يمكن أن يكون حالة معنوية، بسبب البعد عن الذات وعدم الرضا عن الوسط الذي يعيش فيه الفرد، ولهذا فان المهاجر عن وطنه ليس مغتربا في كل الحالات، فقد يكون منسجما مع الآخرين، وقد يكون الشخص مغتربا في وطنه، نتيجة شعوره بالعزلة والتمهيش وعدم الاندماج.

لكن المهاجر الجزائري في فرنسا يعيش في أغلب الأحيان غربة وسط المجتمع الفرنسي، المختلف ثقافيا عن المجتمع الجزائري، والموقف الاجتماعي للطرف الفرنسي في عمومها، يتميز بالاستعلاء والإهانة والعنصرية اتجاه المهاجرين الجزائريين، ويرغب أغلبهم في عودتهم الى وطنهم الجزائر.

II . البوادر الأولى للهجرة الجزائرية الى فرنسا

إن الظروف الخاصة التي ميزت تاريخ الجزائر في القرن التاسع عشر، من استيلاء على أراضي الشعب الجزائري وسلب حقوقه وانتهاك حرمة وكرامته... شكلت كلها أهم عوامل التفكير في الهجرة خارج الجزائر، ولكن قبل هذا كانت البداية مع الهروب والتحصن في الجبال المنعزلة عن جيش المستعمر، والابتعاد عن الضغوط والاستفزازات، إلا أن القمع الاستعماري تواصل خاصة بعد كل عملية مقاومة يقوم بها الجزائريون. يقول الكاتب الجزائري مصطفى الأشرف في كتابه الجزائر الأمة والمجتمع: " ان العناصر التي ارتكزت عليها السياسة الفرنسية، هي التجويع والشقاء والترحيل... وخير مثال على ذلك هو ما قاله الكولونيل فوري بعدما دمر وأحرق عدة قرى جبلية: " أحسبني أدت مهمتي على أكمل وجه، إذ أننا دمرنا تدميرا كاملا جميع القرى والأشجار والحقول... وإذا تساءل البعض هل كان عملا خيرا أم شرا ؟ فأني أجيبهم بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع السكان وحملهم على الرحيل..."(الأشرف، 1983، صفحة 85). بدأ هذا الرحيل الاجباري الى الدول المجاورة، ثم توسع الى دول المشرق العربي كسوريا وفلسطين بصورة مكثفة حيرت الحكومة الفرنسية ابتداء من سنة 1854(الأشرف، 1983، صفحة 230).

أما الهجرة الى فرنسا، فرغم غياب أدلة كافية على أعداد الجزائريين الذين هاجروا الى فرنسا في القرن ال19، إلا أن القرار الفرنسي الذي يفرض على الجزائريين رخصة السفر، المؤرخ في 1874(زوزو، 1974، صفحة 12) يقودنا الى اعتبار الهجرة الى فرنسا بدأت منذ السنوات الأولى للاحتلال، والدراسات التاريخية تشير الى وجود بعض المستخدمين والعمال الجزائريين في فرنسا، للعمل في بيوت الفرنسيين، كخدم أو للتجارة ببعض التحف والصناعات الحرفية والتقليدية الجزائرية.

وفي مطلع القرن العشرين وبالضبط سنة 1912، ومع تنامي التوتر الدولي والتحضيرات العسكرية لخوض الحرب العالمية الأولى، والحاجة الفرنسية الكبيرة لليد العاملة، بدأ استقدام العمال الجزائريين أعداد كبيرة، فقدر عددهم حسب تقرير فرنسي في هذه السنة بحوالي 4000 أو 5000 عامل (زوزو، 1974، صفحة 23) كلهم يشتغلون في أصعب الأعمال وبأجور جد ضعيفة.

أمام هذه المكاسب الاقتصادية الفرنسية، تقرر إلغاء رخصة السفر في مرسومين مؤخرين في 18 جوان 1913 و15 جويلية 1914 فارتفع عدد المهاجرين الجزائريين الى 78000 مهاجر سنة 1918 (بوحوش، 1974، صفحة 134).

وكان من بينهم عدد كبير تم تهجيرهم في إطار التجنيد الاجباري للدفاع عن فرنسا خلال الحرب العالمية الأولى، وبلغ عددهم حسب أغلب الدراسات 19000 شخص (معتوق، 1985، صفحة 16).

وهكذا، ما ان انتهت الحرب حتى بدأت الهجرة الجزائرية الى فرنسا تأخذ طابعا ثابتا؛ حيث استقر العديد من المجندين واختاروا أن يعملوا في فرنسا، في البناء والموانئ والسكك الحديدية... الخ، ومنهم من استقدم عائلته من الجزائر، وأقام بصفة دائمة في ديار الغربية.

وعليه، نستطيع القول أن البداية الحقيقية للهجرة الجزائرية الى فرنسا، كانت قبيل الحرب العالمية الأولى (k.Alimazighi, 1993, p. 31) وتحديدا سنة 1912، كما تدل على ذلك أغلب الدراسات التاريخية، سواء الجزائرية منها أو الأجنبية، وأن عدد المهاجرين الجزائريين في القرن التاسع عشر كانوا يعدون على الأصابع.

III. مراحل تطور الهجرة الى فرنسا

III.1- بعد الحرب العالمية الأولى: عقبات المعمرين واكتشاف العمل السياسي

كانت فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى مرحلة تشكيل لظاهرة الهجرة الجزائرية الى فرنسا، بسبب عوامل قاهرة، أجبرت العديد من الجزائريين على ترك وطنهم، وبعد نهاية الحرب وما نتج عنها من تدمير كبير للاقتصاد الفرنسي، ونقص في اليد العاملة بسبب وفاة الآلاف من الشباب الفرنسي، اعتمدت فرنسا على اليد العاملة الجزائرية لإعادة البناء والتعمير؛ حيث بلغ عدد العمال الجزائريين سنة 1924 حوالي 100 ألف عامل (بوحوش، 1974، صفحة 135).

كما كان للمجاعة التي عرفتها الجزائر في 1919-1920 دورا كبيرا في الدفع بالجزائريين الى الهجرة بصورة مكثفة، وهذا ما أدى بالقيادة الفرنسية الى اصدار قرار يقضي باشتراط العديد من الوثائق للعبور الى فرنسا، وذلك في سبتمبر 1924.

(Alimazighi, 1993, p. 32) ويعد القرار كذلك نتيجة لرغبة المعمرين الفرنسيين بالجزائر في بقاء اليد العاملة الجزائرية الرخيصة بوفرة، حتى لا يرتفع أجرها.

وهكذا انخفض عدد المهاجرين الى فرنسا سنة 1925 الى 24753 بعدما كان 71023 سنة 1924 (زوزو، 1974، صفحة 18)، وازداد هذا الانخفاض أكثر بعد اصدار مرسوم آخر سنة 1926، يفرض شهادة السوابق العدلية إضافة الى اكتساب مبلغ مالي يقدر بـ150 فرنك (Alimazighi, 1993, p. 34)، ثم مرسوم 4 أبريل 1928 الذي يفرض وضع المهاجر لقيمة مالية كرهينة. وفي سنة 1929 شهد العالم أزمة اقتصادية كبيرة، أثرت على معظم المهاجرين في فرنسا، فعاد الكثير منهم الى الجزائر نتيجة البطالة؛ حيث دخل الى الوطن في هذه السنة 42227 مهاجر، بعدما كان في السنة السابقة 25008 عائد (بوحوش، 1974، صفحة 137).

وتواصل انخفاض عدد الناهبين الى فرنسا، وبالمقابل تزايد عدد العائدين الى الجزائر بشكل ملحوظ حتى سنة 1936، حينما ألغت الحكومة الفرنسية الجديدة التابعة للجيبة الشعبية المراسيم التي تعرقل حركة الهجرة، غير

أن الأزمة التي قامت بين هذه الحكومة والحركة النقابية، أدت الى عودة أكثر من 25000 عامل جزائري سنة 1937 (بوحوش، 1974، صفحة 137). فكانت السنوات القليلة السابقة لاندلاع الحرب العالمية الثانية صعبة على المهاجرين، الذين بدأ أكثرهم في العودة الى الجزائر؛ حيث أصبح عدد العائدين يكاد يفوق عدد الذاهبين الى فرنسا.

لكن رغم هذا، فقد تفتح الجزائريون في المهجر، على أساليب النضال السياسي الحديثة، واكتشفوا أنها وسيلة بديلة للحفاظ على خصوصيات هويتهم وحقوقهم المادية، من خلال انخراطهم في النقابات والجمعيات، وصولاً لتأسيس نجم شمال افريقيا.

III.2- الهجرة أثناء الحرب العالمية الثانية: الاحتلال النازي لفرنسا أحدث الخلل

عاد الطلب الفرنسي على اليد العاملة الجزائرية خلال هذه المرحلة، بسبب نقص العمال الفرنسيين، الذين ذهب معظمهم الى جبهات القتال، بناء على قرار وزير العمل الفرنسي في جانفي 1940 (طفطاف، 1985، صفحة 65) إلا أنه تم طرد حوالي 16000 عامل جزائري، بعد سقوط فرنسا في يد النازية وغلق المصانع الحربية. وبداية من نوفمبر 1942 حتى نهاية الحرب، توقف تدفق المهاجرين الجزائريين الى فرنسا، بسبب رفض القيادة العسكرية الاستعمارية في الجزائر الاستجابة لطلب الحكومة المركزية الفرنسية التابعة لألمانيا، بالسماح للجزائريين بالهجرة الى فرنسا من أجل العمل، بل شكلوا من الشباب الجزائري الى جانب الفرنسيين جيشاً لتحرير التراب الفرنسي من الاحتلال الألماني، وقد بلغ عدد الجزائريين في فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية حوالي 45000 مهاجر. ويجدر الذكر الى غياب احصائيات عن حركة الهجرة أثناء هذه الحرب.

III.3- الهجرة بعد الحرب العالمية الثانية: تدفق للعمل وللنضال السياسي

بواسطة قرار 7 مارس 1944 وقانون 23 سبتمبر 1947، تم رفع جميع القيود السابقة على الهجرة (Alimazighi, 1993, p. 39)، رغبة من الحكومة الفرنسية في رد بعض الجميل للجزائريين، الذين دافعوا عن فرنسا الى جانب الفرنسيين ضد السيطرة الألمانية، وكذلك تكفيراً عن جرائم 08 ماي 1945 التي ذهب ضحيتها 45 ألف جزائري طالبوا بالحري والاستقلال.

كما كان هدف فرنسا من تسهيل الهجرة، العمل من أجل إعادة بناء الاقتصاد الفرنسي المنهار، بواسطة العمال الجزائريين، وقد قدر عدد المهاجرين سنة 1947 بحوالي 76000، ولم يعد منهم سوى 22300 (بوحوش، 1974، صفحة 140)، واستمر التدفق البشري من الجزائر الى فرنسا، مع انخفاض عدد العائدين بسبب تدني مستوى المعيشة بالجزائر وارتفاع النمو الديمغرافي والسكاني، وبدأ الوعي السياسي الوطني يتبلور لدى الشبان الجزائريين المثقفين وغيرهم، وبدأت الأحزاب الجزائرية تعمل بالمهجر على نشر الوعي والروح الوطنية.

III.4- الهجرة خلال الثورة: دعم كبير للكفاح في الجزائر

نتيجة للظروف الصعبة التي كان يعيشها الشعب الجزائري، عشية اندلاع الثورة التحريرية، بقيت الهجرة الى فرنسا هي الوسيلة المثلى لتحسين هذه الظروف، ولهذا فقد تواصلت حركة الهجرة في التطور في بداية الثورة، وبعدها دعت جبهة التحرير الوطني الشباب الى الكفاح وتشديد الخناق على المهاجرين من طرف فرنسا، انخفضت حركة الهجرة الى غاية اقتراب موعد الاستقلال؛ حيث ارتفع عدد المهاجرين الى فرنسا بشكل ملحوظ، فوصل عددهم سنة 1962 الى 180167 مهاجر (بوحوش، 1974، صفحة 141)، وسبب ذلك هو خوف أعوان الإدارة الفرنسية من أي رد فعل عنيف من طرف الدولة الجزائرية المستقلة لتعاونهم مع الاحتلال.

III.5- الهجرة بعد الاستقلال: تذبذب حسب المزاج السياسي

يوم 5 جويلية 1962 ورثت الجزائر المستقلة تركة ثقيلة عن الاستعمار، تمثلت في (آلاف المنازل المدمرة، عشرات القرى المحطمة ومئات الآلاف من الساكنين في المحتشدات لمنعهم عن مساندة المجاهدين، وعشرات الآلاف من اللاجئين في المغرب وتونس... الخ (Alimazighi, 1993, p. 45)، ونتيجة هذا بلا شك، هي مآسي اجتماعية كبيرة، أهمها الفقر والبطالة والجهل... الخ، ومع عجز الدولة الجزائرية الفتية على تطويق هذه الأزمات، اضطر الكثير من الشباب الجزائري الى تجريب مغامرة الهجرة الى فرنسا، فبلغ عددهم سنة 1963، 262035 مهاجر (بوحوش، 1974، صفحة 141)، وخوفا من تزايد الجزائريين أغلقت فرنسا أبواب الهجرة في السنة الموالية، ولكن رغم هذا بلغ عدد المهاجرين في فرنسا حوالي 460 ألف نسمة 50% منهم دون العشرين من أعمارهم (بوحوش، 1974، صفحة 144).

وبعد هذه الأزمة اتفقت الجزائر وفرنسا على إيجاد حل لها بواسطة اتفاقية 10 أفريل 1964 (طفطاف، 1985، صفحة 68)، التي تقضي بتسهيل هجرة الطلبة والسواح والتجار الجزائريين الى فرنسا، مع تحديد مدة الإقامة بثلاثة أشهر وعدد العمال بـ12000 عامل في السنة.

وعادت الأزمة الى العلاقات الثنائية بعد طرد فرنسا 4000 عامل جزائري، والمعاملة السيئة لبقية المهاجرين، وبعد ذلك تم تعديل اتفاقية 1964 بأخرى مؤرخة في 28 / 12 / 1968، سمحت بالرفع من عدد العمال من 12000 الى 35000 عامل في السنة (بوحوش، 1974، صفحة 145) كما أعطت تفضيلات ومزايا كبيرة للجزائريين.

وفي 10 فيفري 1969 فرضت فرنسا على الجزائريين الراغبين في تحويل أموالهم الى الجزائر، وثيقة الأجر، فنشبت أزمة حادة بين البلدين، استمرت وازداد تأثيرها السلبي على المهاجرين بعد قرار تأميم المحروقات من طرف الجزائر سنة 1971؛ حيث تعرضوا الى موجة كبيرة من العنف والعنصرية؛ مما دفع بالرئيس هواري بومدين الى اتخاذ قرار توقيف الهجرة في سبتمبر 1973.

وفي سنة 1974 بدأت فرنسا في العمل على تشجيع عودة الأجانب الى بلدانهم، بمنحهم مبلغ 10 آلاف فرنك، بحجة أنهم سبب البطالة التي يعيشها الفرنسيون، وذلك باستغلال الضغط الممارس من طرف اليمين المتطرف

الفرنسي، الذي يرفع عدة شعارات منها: " الهجرة = صفر " و " فرنسا للفرنسيين " وبقي المهاجرون الجزائريون يعدون موتاهم خلال فترة السبعينيات، التي شهدت أصعب مراحل الهجرة وأشدّها وطأة، الى أن بدأت سياسة فرنسا تتغير بمجيء الحكومة الاشتراكية الى الحكم بقيادة الرئيس فرانسوا ميتران سنة 1981؛ حيث تم ايقاف عملية الطرد وانخفضت أعمال الاستفزاز والقمع من طرف البوليس الفرنسي، وبدأت عملية تنظيم الهجرة لتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمهاجرين.

وخلال السنوات الأولى لعشرية الثمانينات، عرفت أعداد المهاجرين استقرارا وثباتا، بالرغم من تسجيل عودة آلاف الجزائريين الى الوطن، وهذا راجع الى ارتفاع نسبة النمو الديمغرافي وسط عائلات المهاجرين، ففي إحصائية لوزارة الداخلية الفرنسية سنة 1982، قدر عدد الجزائريين بفرنسا بحوالي 820000 نسمة، أي ضعف عدد المغاربة تقريبا وأربعة أضعاف عدد التونسيين في فرنسا.

IV. أسباب ودوافع الهجرة

1.IV- التجنيد الاجباري: باب الهجرة الكبير

تعد حروب فرنسا، ابتداء من مطلع القرن العشرين وحتى بداية الثورة الجزائرية، من أهم عوامل هجرة الجزائريين، وذلك بواسطة عملية تجنيد الشباب الجزائري في صفوف الجيش الفرنسي، أو للعمل في المصانع الحربية الفرنسية، وقد بلغ عدد المجندين اجباريا خلال الحرب العالمية الأولى 270000 جزائري (زوزو، 1974، صفحة 46) وبقي الأمر كذلك حتى أثناء الحرب العالمية الثانية أو الحرب الهند - الصينية.

بعد الحرب، فضل الكثير من الجزائريين الاستقرار في فرنسا والعيش في وسط أحسن من الوسط الموجود في الجزائر المستعمرة، اعتقادا منهم أن المجتمع الفرنسي سيرد جميلهم على ما قدموه من خدمات أثناء تجنيدهم في الجيش الفرنسي. وهكذا شكل العامل العسكري، المحفز الأساسي للتدفق الكبير من طرف الجزائريين في اتجاه فرنسا.

2.IV- رد فعل على القهر الاقتصادي

أبرزها هي اغتصاب الأراضي الزراعية من أصحابها الجزائريين، غداة الاحتلال الفرنسي واستغلالها من طرف المعمرين، والتي كانت تشكل أهم مصدر لمعيشة الجزائريين، اغتصبها منهم بشتى الطرق، سواء بشراؤها بأسعار رمزية، أو بسلبها بعد ترحيل سكانها المقاومين.

كما شكلت الضرائب المرتفعة المفروضة على السكان والتي تسمى " الضرائب العربية " (بوحوش، 1974، صفحة 95) دافعا هاما لترك الجزائريين بلادهم والهجرة الى الخارج؛ ففي سنة 1843 وأثناء التوغل الاستعماري بجبال الشرق الجزائري، تم جمع مليون فرنك ذهبا في شكل ضرائب، وبعد سنتين أصبحت الضرائب لا تسد بواسطة المحاصيل الزراعية كما كانت سابقا، بل تسد نقدا من طرف الفلاحين (بونيان، 1984، صفحة 334)، مما أفقرهم ودفعهم الى الهجرة القسرية.

لكن هناك عامل جاذب من عوامل الهجرة، هو ارتفاع أجر العمل في فرنسا مقارنة بما هي عليه في الجزائر، أين كانت البطالة ووفرة اليد العاملة، تؤدي الى خفض الأجور، في سنة 1929 مثلا كان مستوى أجر العامل الجزائري في فرنسا هو 12520 فرنك، بينما في الجزائر هو 2080 فرنك، من مجموع 14 ساعة عمل يوميا (زوزو، 1974، صفحة 45) والعامل الاقتصادي الرابع، هو انعدام الصناعة في الجزائر، نتيجة السياسة الفرنسية الرامية الى ترك الجزائر بلدا زراعيا وسوقا لصناعاتها.

IV-3. سياسات الأنديجينا والمسح الثقافي والتجهيل

وتتمثل بالخصوص في التشريعات الفرنسية التي فرضت على السكان، بدل القوانين والأعراف التي كانت سائدة من قبل والمستمدة من الدين الإسلامي؛ حيث اضطرت كثير من العائلات الجزائرية الى الهجرة حفاظا على مقوماتها الثقافية وتقاليدها الموروثة، ولكن أكثرها اتجه الى دول المشرق العربي أو تونس.

كما أن الإجراءات الاستثنائية الخاصة بالأهالي (قانون الأنديجينا)، الذي وضع الجزائريين في المرتبة الثانية بعد المعمرين، وهضم حقوقهم السياسية للمشاركة في الانتخابات والتمثيل البرلماني... أرغم الكثير من المثقفين خاصة بين الحريين، على الهجرة الى فرنسا للنضال السياسي واسماع صوت الجزائريين، وفي هذا الصدد يقول الدكتور العقاد: " قد يبدو غريبا أن تنشأ أول حركة قومية جزائرية مناضلة على أرض فرنسا ذاتها، وتفسير ذلك هو أن العيش قد ضاق بكثير من الجزائريين في بلادهم المستعمرة... مع توفر عامل الحرية في الأراضي الفرنسية " (العقون، 1984، صفحة 50).

كما لم تسمح السلطات الاستعمارية الفرنسية بتعليم الجزائريين إلا لمستوى محدود، لا يتعدى السنة السادسة ابتدائي في أغلب الحالات، وذلك خوفا من تنامي الوعي الوطني الذي يمكن أن يحمله التعليم والتثقيف، وتشير الأرقام الى أن الذين واصلوا دراستهم في التعليم الثانوي من الجزائريين لم يتعدوا نسبة 0,56%، ونتيجة هذا اللاتوازن التعليمي لجأ عدد من الشباب الجزائري الى الهجرة لمزيد من التعلم؛ حيث بلغت نسبتهم 15% (زوزو، 1974، صفحة 50).

من كل ما سبق، يتبين أن ظاهرة الهجرة الجزائرية الى فرنسا، هي نتيجة طبيعية وحتمية للسياسات الاستعمارية القمعية في مختلف مجالات الحياة، سواء كانت في الجوانب المعنوية أو المادية للجزائريين، كملجأ اجباري لحياة أكثر انسانية.

V. تأثيرات الهجرة على المهاجرين والمجتمع الجزائري

V.1- اعمار لفرنسا ومداخيل للجزائريين

لقد استفاد الاقتصاد الفرنسي كثيرا من اليد العاملة الجزائرية، فمنذ مطلع القرن العشرين وكلما احتاجت الصناعة الفرنسية الى العمال، تلجا الى الجزائر، فتفتح أبواب الهجرة بالكم المطلوب، ثم بعد ذلك تقوم بغلقها،

أما بالنسبة للخدمة العسكرية، فقد تم تهجير الجزائريين بالقوة، كما حدث سنة 1912 قبيل الحرب العالمية الأولى.

وحتى بعد الاستقلال، ظل العمال المهاجرون الجزائريون، هم من يتحملون عبئ بناء وازدهار الاقتصاد والمجتمع الفرنسيين، وذلك بتوظيفهم في أصعب الأعمال وأخطرها كالمناجم والبناء والأشغال العمومية... الخ. لكن وبالرغم من كل هذه الخدمات، إلا أن المهاجرين كانوا يعيشون في ظروف اقتصادية واجتماعية صعبة ومأساوية، كالاتقار الى السكن اللائق وتهيئة الأحياء التي يعيشون فيها وغياب الضمان الاجتماعي... الخ.

أما بالنسبة للجزائر، فإن أهم أثر اقتصادي للهجرة هو التخفيف من حدة البطالة وامتصاص الفائض من اليد العاملة، إضافة الى رفع المداخيل من العملة الصعبة بواسطة تحويلات المهاجرين الى الداخل، وكذلك الاستفادة من خبرة هؤلاء في بناء الاقتصاد الجزائري بعد عودتهم؛ حيث أشارت الاحصائيات الى عودة 17000 عامل سنة 1972 حسب مجلة آفاق العربية.

خلاصة القول، أن العمال الأجانب في فرنسا ومنهم الجزائريون بالدرجة الأولى، هم المحرك الرئيسي للاقتصاد الفرنسي، ولهذا فإن الدعوة الى طردهم هي دعوة نابعة من ايديولوجية عنصرية متعالية، مما يؤدي الى اضعاف الاقتصاد الذي شيده بسواعدهم، فحسب احصائيات فرنسية نفسها فان: (سيارة من 4 سيارات وكلم واحد من كل 3 كم ومسكنين من بين 5 مساكن بناها العمال المهاجرون) (وارتل، 1981، صفحة 212).

V. 2- تشكيل الوعي الوطني قبل الاستقلال وتأثير على العلاقات الثنائية بعده

لعبت الهجرة الجزائرية قبل الاستقلال دورا مهما في الحركة الوطنية؛ حيث عمل المهاجرون على إيصال معاناة الشعب الجزائري الى الرأي العام الفرنسي، وهكذا فقد تأسس في فرنسا حزب نجم شمال افريقيا سنة 1926، الذي دعا الى الاستقلال التام للجزائر، كما ساهم المهاجرون خلال الثورة التحريرية في دعمها ماديا، وبواسطة المظاهرات، كما حدث في 17 أكتوبر 1961، الذي أصبح يوما وطنيا للهجرة.

وتواصل الدور السياسي للهجرة بعد الاستقلال، بإنشاء منظمة وداوية الجزائريين بأوروبا، التي عملت على توحيد المهاجرين وجمع شملهم في إطار منظم، وتوعيتهم وتحسيسهم بالانتماء السياسي الوطني... ولكن من أهم الآثار السياسية للهجرة من دون شك، هي تحكّمها في طبيعة العلاقات بين الجزائر وفرنسا؛ بحيث كانت تتغير وفق وضع المهاجرين في فرنسا سلبا أو إيجابا، كما استخدمت الهجرة كورقة ضغط من طرف البلدين، تبرز في ظروف سياسية يميزها التوتر، وأكد هذا الرئيس هواري بومدين في خطاب له سنة 1973 بقوله: " إذا كنا نتحدث عن العلاقات بيننا وبين الدولة الفرنسية، فإن احترام المواطن الجزائري الموجود في فرنسا، واحترام الهجرة الجزائرية، له وزنه اليوم وغدا وبعد غد، ما دامت هناك هجرة في فرنسا، وهذا الاحترام في نظرنا له وزن يفوق كل الجوانب المادية في العلاقات بين البلدين " (بوحوش، 1974، صفحة 299).

V. 3- اغتراب اجتماعي وثقافي في بيئة عنصرية معادية

ينطلق المهاجر الجزائري في رحلته الى فرنسا، من مجتمع متميز له خصوصياته، فيجد نفسه في محيط اجتماعي آخر، يختلف جذريا عن محيطه الأصلي، وهذا ما يطرح مشكلة معقدة، تتمثل في عدم التكيف الثقافي والاجتماعي، وما ينتج عنه من استيلا ب فكري. إن أكبر المشاكل التي تعيق الجيل الثاني والأجيال الموالية من المهاجرين الذين ولدوا في المهجر، هي التمزق النفسي والاجتماعي الكبير، بسبب التآرجح بين بيئتين ثقافيتين مختلفتين اختلافا كبيرا: ثقافة الأسرة الجزائرية الأصيلة والمحافظة وثقافة المحيط الفرنسي المتحرر، وبالتالي فان تعلم أبناء المهاجرين لغتهم الأصلية وثقافتهم الأم، تواجهه صعوبات كبيرة، فمن بين 100 ألف طلب لتعلم اللغة العربية لأبناء المغتربين من البلدان المغاربية سنة 1972 مثلا، لم تتح الفرصة إلا لـ 15 ألف تلميذ فقط (بوحوش، 1974، صفحة 223).

خلاصة القول، ان هذه الآثار المختلفة للهجرة وخاصة السلبية منها، على العمال وعائلاتهم وأبنائهم، هي بالدرجة الأولى نتيجة الموقف السلبي للمجتمع الفرنسي عامة ومؤسساته الرسمية اتجاههم. يقول الكاتب الفرنسي " فيانسون موني" في صحيفة " لوموند " الفرنسية، كعينة عن مشاعر واتجاهات الفرنسيين نحو المهاجرين: " إن العامل المهاجر من شمال افريقيا في بلادنا، هو قوة عمل ليس أكثر...إنه يكاد يكون بصعوبة (إنسانا)، إننا نلتقي به في الشارع ولا نراه... ولكن سنصطدم بحالة متناقضة... إنه حاضر حضورا مهولا بل يشكل تهديدا بالخطر... إننا نكتشفه فجأة ويتحول نظرنا اليه من اللامبالاة الى الخوف من الاعتداء والعنف..." (شريط، 1981، صفحة 26).

إن هذا الكلام، يعبر بصدق كبير عن موقف جمهور عريض من الفرنسيين اتجاه المهاجرين الجزائريين بصورة خاصة، ولكن العنف والاعتداء الذي يخافهما الفرنسيون من هؤلاء، صدر ولا زال يصدر في الاتجاه المعاكس، عندما عاني ولا زال المغتربون الجزائريون يعانون من مختلف أشكال العنصرية والاستفزاز وحتى القتل من طرف الفرنسيين، ففي الفترة من 01 فيفري 1971 الى 31 ماي 1971 (4 أشهر فقط) قتل أكثر من 33 مهاجر جزائري (بوحوش، 1974، صفحة 303).

خاتمة

بالرغم من أن الاستعمار الفرنسي، هو المتسبب الأول في ظاهرة الهجرة القسرية والكبيرة للجزائريين الى الخارج عموما والى فرنسا على وجه الخصوص، إلا ان هذه الأخيرة، لم تستطع أو لم ترد أن تتحمل المسؤولية التاريخية والمعنوية اتجاه الجزائريين. ففرنسا الرسمية وغير الرسمية، تنظر الى المهاجرين الجزائريين في الفترات الأولى للهجرة على أنهم مجرد قوة عمل لا غير، ثم أصبحت نظرتها لأجيالهم المختلفة فيما بعد، تحمل مشاعر الكراهية والاستعلاء والعنصرية، وترى أن المهاجر مغتصب لمنصب العمل وحامل لتناقضات ثقافية واجتماعية تمس أسس جمهورية ديغول.

كل هذا، يحدث رغم الاضافات النوعية التي قدمها المهاجرون الجزائريون، في مختلف المراحل- كما رأينا من قبل- من تحرير فرنسا نفسها من الاحتلال النازي، الى بناء اقتصادها المنهار وتنميته...الخ، فلم تعمل فرنسا على رد الجميل للجزائريين، وتعويضهم عن معاناة ومآسي الليل الاستعماري الطويل للجزائر.

لكن، والى جانب هذه النظرة الفوقية، فان المهاجرين يعانون اغترابا وتمزقا وصراعا نفسيا جماعيا، ناجم عن تناقض واختلاف القيم الأسرية والاجتماعية والخصوصيات التاريخية لكلا المجتمعين، مما انعكس سلبا على التعايش والاندماج.

ان ظاهرة الهجرة الجزائرية الى فرنسا، التي لها تداعياتها وايجابياتها وسلبياتها كذلك، تتطلب المزيد من الدراسة والتحليل العميقين في شتى فروع العلوم الانسانية والاجتماعية، لرسم معالم أكثر دقة للتاريخ الاجتماعي والسياسي المعاصر للجزائر.

- المراجع:

1. الأشرف، مصطفى. (1983). الجزائر الأمة والمجتمع. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
2. بودون، ر. بوريكو، ف. (1989). المعجم النقدي لعلم الاجتماع. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
3. بوحوش، عمار. (1974). العمال الجزائريون في فرنسا. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
4. بونيان، أندري. (1984). الجزائر بين الماضي والحاضر. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
5. بن عبد الكريم، محمد. (1981). حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
6. بن العقون، عبد الرحمن. (1984). الكفاح القومي والسياسي من خلال مذكرات معاصر. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
7. وارتل، جان كلود. (1981). سياسة الحكومة الفرنسية والاحتكارات الرأسمالية في مسألة الهجرة وموقف الكونفدرالية للشغل اتجتههم. الجزائر: مكتب العمل العربي.
8. زوزو، عبد الحميد. (1974). دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا في الحركة الوطنية بين الحربين 1919 - 1939. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
9. طفطاف، مسعود. (1985). الهجرة الخارجية وأثرها على تماسك الأسرة. رسالة ماجستير غير منشورة. جامعة قسنطينة.
10. اليونسكو. (1979). الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والانسانية. دمشق: مطبعة جامعة دمشق.
11. موفق، جانين. (1984). الهجرات الداخلية بين الولايات ما بين 1966 و1977. الجزائر: الديوان الوطني للإحصائيات.
12. المطرزي، أبو الفتوح ناصر الدين. (د س ن). المغرب في ترتيب المغرب. بيروت: دار الكتاب العربي.
13. معتوق، سريديريك. (1985). مسرح العمال والمهاجرين في فرنسا. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
14. مذكور، ابراهيم. (1975). معجم العلوم الاجتماعية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
15. عصار، خير الله. (1982). محاضرات في البحث الاجتماعي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
16. شريط، عبد الله. (1981). المشكلة الايديولوجية وقضايا التنمية. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
17. k. Alimazighi. (1993). L'émigration algérienne en France , histoire et problèmes culturels. Alger. Opu.